أحداث التاريخ العثماني في شعر شوقي

د. تسنيم محمد حرب

جامعة قناة السويس - مصر

ملخص

يهدف هذا البحث إلى تحديد ورصد جانب معين من قصائد أمير شعراء العرب أحمد شوقي، والذي يحكي ويسجِّل أحداث التاريخ العثماني.

زار شوقي الأستانه أكثر من مرَّة وكتب فيها الكثير من القصائد وصفًا ونقدًا، ومن الأحداث التي تناولها شوقي الحرب العثمانية اليونانية التي أعلنتها الدولة العثمانية ١٨ ابريل ١٨٩٧م على اليونان، وانتهت بنصر كبير للعثمانيين، فكتب حول هذه الحرب قصيدتين: «صدى الحرب» و«تحية للترك»، وتناول أيضًا محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، وهنأه شوقي بقصيدة تحمل اسم «نجاة»، وتحدَّث أيضا عن خلع السلطان عبد الحميد وحادثة الانقلاب العثماني، والقصيدة التي علَّق بها شوقي على هذه الأحداث تحمل اسم: «الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد»، تحدَّث أيضا شوقي عن إلغاء الخلافة وانتخاب مصطفى كمال رئيسًا لتركيا، وتحوُّل تركيا لنظام جمهوري، وقد نعى الخلافة في مطلع قصيدته «انتصار الأتراك في الحرب والسياسة». تحدَّث أيضا شوقي عن مشاهير العهد العثماني الأخير من القادة العسكريين والزعماء الوطنيين والعلماء ورجال الصحافة.

الكلمات المفتاحية: أحمد شوقي، ديوان الشوقيات، الحرب العثمانية اليونانية، السلطان عبد الحميد الثاني، إلغاء الخلافة، مصطفى كامل، الأسطول العثماني، الدستور العثماني، المشروطية الثانية.

Şevkî Deyf'in Şiirinde Osmanlı Tarihi Olayları

Dr. Tasnîm Muhammed Harb

Özet

Bu araştırma, Osmanlı tarihi olaylarını anlatan ve kaydeden Arap şairleri Emiri Ahmed Şevkî'nin şiirlerinin belirli bir yönünü ortaya koymayı amaçlamaktadır.

Şevkî, İstanbul'u birden fazla ziyaret ederek, niteleyen ve eleştiren pek çok şiir yazdı. Şevkî'nin ele aldığı olaylar arasında, Osmanlı İmparatorluğu'nun 18 Nisan 1897'de Yunanistan'a karşı ilan ettiği Osmanlı-Yunan savaşıdır. Bu savaş Osmanlılar için büyük bir zaferle sonuçlanmıştı. Bu savaş hakkında "Savaşın Yankısı" ve "Türklere Selam" adında iki şiir yazdı. Ayrıca Sultan II. Abdülhamid suikastını ele alarak kendisini tebrik mahiyetinde "Necat" adlı bir şiir yazdı. Sultan Abdülhamid'in tahttan indirilmesi ve Osmanlı darbesi olaylarından da bahsetti. Şevkî bu iki olayla ilgili "Osmanlı darbesi ve Sultan Abdülhamid'in düşüşü" adlı şiiri kaleme aldı. Ayrıca hilafetin kaldırılması ve Mustafa Kemal'in Türkiye Cumhurbaşkanı olarak seçilmesi ve Türkiye'nin cumhuriyetçi bir sisteme dönüştürülmesinden bahsetti ve "Türklerin Savaşta ve Siyasette Zaferi" adlı şiirinin başında hilafeti tenkit etti. Şevkî ayrıca askeri liderler, ulusal liderler, ilim adamları ve gazeteciler de dahil olmak üzere son Osmanlı dönemi ünlülerinden bahsetti.

Anahtar Kelimeler: Ahmed Şevkî, eş-Şevkiyyât Divanı, Osmanlı-Yunan Savaşı, Sultan II. Abdülhamid Suikastı, Hilafetin Kaldırılması, Mustafa Kemal.

The Events Of Ottoman History In Shawky's Poetry

Dr. Tasneem Mohammed Harb

Abstract

This research aims to identify and monitor a specific aspect of the poems of the Prince of Arab Poets Ahmed Shawky,who tells and records the events of Ottoman history.

Among the events that Shawky dealt with, the Greek-Ottoman War declared by the Ottoman Empire on April 18, 1897 AD over Greece ended with a great victory for the Ottomans. He wrote about this war with two poems "Echo of War" and "Greetings to the Turks." He also dealt with the incident of the assassination of Sultan Abdul Hamid II, and also spoke about the deposition of Sultan Abdul Hamid and the incident of the Ottoman coup and the poem in which Shawqi commented on these events bearing the name "the Ottoman coup and the fall of Sultan Abdul Hamid" Shawky also spoke about the abolition of the caliphate and the election of Mustafa Kemal as president of Turkey and the transformation of Turkey into a republican system, and the caliphate was mourned at the beginning of his poem "The Victory of the Turks in War and Politics". Shawky also spoke about famous Ottoman era celebrities such as military leaders, national leaders, scholars and the press.

Keywords: Ahmed Shawky, Diwan Al Shawqiyat, the Ottoman-Greek War, an attempt to assassinate Sultan Abdul Hamid II, the abolition of the caliphate, Osman Pasha al-Ghazi, Adham Pasha, Mustafa Kamel, the Ottoman fleet, the Ottoman constitution and the declaration of the second conditionality, deposing Sultan Abdul Hamid II.

المقدمة

يهدف هذا البحث "أحداث التاريخ العثماني في شعر شوقي" إلى عرض وتحليل رؤية أحد أبرز الشعراء العرب (أمير الشعراء أحمد بك شوقي) للأحداث التي عاصرها في عهد الدولة العثمانية، وكذلك وعيه واستيعابه لتاريخها، وفلسفته لهذا التاريخ، والنقد الموجَّه للدولة ورجالها وسلطانها، كنموذج لرأي وتوجه المثقَّفين العرب في الدولة العثمانية في سنواتها الأخيرة.

وسوف نعتمد على إيراد بعض نماذج من الأحداث والقضايا المتعلِّقة بالدولة العثمانية، ورأي أحمد شوقي في هذه الأحداث والقضايا، ولا نهدف إلى استقصاء الأشعار التاريخية لشوقي حول الدولة العثمانية.

ويعتمد هذا البحث في مصدره الأساسي على ديوان أحمد شوقي (الشوقيات) فقط، دون بقية كتبه.

ومنهجنا المستخدم هنا هو المنهج الوصفي ثم المنهج التحليلي، وهما الأنسب لتحقيق أهداف البحث.

ولابدَّ هنا من الإشارة إلى أن شوقي زار الأستانة أكثر من مرَّة وكتب فيها الكثير من القصائد وصفًا ونقدًا وافتنانًا.

وتبرز أهمية هذا البحث في أنه يبين صورة الدولة العثمانية في مخيِّلة المصريين والعرب، ويوضح رؤيتهم لها وفلسفتهم للتاريخ العثماني، من خلال أحد أعلام الأدب والفكر وموجِّهي الرأي العام، فلعلَّ هذه الصورة ما تزال بقاياها ماثلة في الأذهان، وتقف حجر عثرة أمام تقارب الشعوب العربية والتركية.

وتتكوَّن خطة البحث من أربعة موضوعات رئيسة، تندرج تحتها عدَّة نقاط فرعية، ثم نتائج البحث، كالآتي: أولًا: أحمد شوقي: حياته ونشأته، أحمد شوقي والتاريخ، ثانيًا: الأحداث التي تناولها شوقي: الحرب العثمانية اليونانية عام ١٨٩٧م، محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، خلع السلطان عبد الحميد الثاني، إلغاء

الخلافة، سقوط أدرنة، ثالثًا: مشاهير العهد العثماني الأخير: عثمان باشا الغازي، أدهم باشا، مصطفى كامل، رابعًا: القضايا التي تناولها شوقي: الأسطول العثماني، الدستور العثماني وإعلان المشروطية الثانية، النتائج.

أولًا: أحمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١ه / ١٨٦٨ - ١٩٣٢م)

١: حياته ونشأته

أحمد شوقي هو أشهر شعراء العصر الحديث في العالم العربي، يلقَّب بأمير الشعراء، ولد بالقاهرة وفيها مات. وتعلَّم في المدارس المصرية الحكومية، ثم قضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧م إلى فرنسة، فتابع دراسة الحقوق في مونبليه، واطلع على الأدب الفرنسي، وعاد سنة ١٨٩١م فعيِّن رئيسًا للقلم الإفرنجي في الديوان الخديوي، وندب سنة ١٨٩٦م لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف، ولما نشبت الحرب العامة الأولى سافر أحمد شوقي إلى إسبانية سنة ١٩١٥م وعاد بعد الحرب (في أواخر سنة ١٩١٩م) فأصبح عضوًا في مجلس الشيوخ المصري إلى أن توفي.[١]

اتسعت ثروته، وعاش مترفًا، في نعمة واسعة، وكانت حياته كلُّها للشعر، يستوحيه من المشاهدات ومن الحوادث. وقد عالج أكثر فنون الشعر، ثم ارتفع محلِّقا فتناول الأحداث السياسية والاجتماعية، في مصر والعالم الإسلامي، فجرى شعره على كلِّ لسان. وهو أول من أوجد القصص الشعري التمثيلي بالعربية، وقد حاول قبله أفراد، فبزَّهم وتفرَّد.[٢] كما ألَّف العديد من الروايات والمسرحيات التاريخية، وبعضها نشرت بعد وفاته بزمن طويل.[٣]

وقد نشِرت له بعد وفاته الكثير من القصائد التي لم تنشر في الطبعات السابقة

١ الأعلام للزركلي ٢/ ٢١٦.

٢ اثني عشر عاما صحبة أمير الشعراء، لأحمد عبد الوهاب، ٦٣، والأعلام ٢/ ٢١٦.

٣ روايات شوقي المجهولة لمحمود علي (دراسة وتحقيق).

لديوانه: (الشوقيات)، كما نشر الدكتور محمد صبري[١] مجلدين بعنوان (الشوقيات المجهولة)،[٢] جمع فيها ما لم ينشَر من شعر شوقي.

وكان للأصول العرقية وتعدُّدها أثرٌ في اتساع ثقافة أحمد شوقي أو في تفرُّد عبقريته الشعرية؛ فقد كتب عن نفسه: (سمعت أبي يردُّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب)،[٣] وأوضح أيضا في رثائه لجدَّته أنها كانت فتاة يونانية تم أسرها وجيء بها لمصر،[٤] كما أنه نشأ في ظل البيت المالك بمصر، وكان ولاؤه وانتماؤه لأسرة محمد علي كبيرًا، وقال فيهم:

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولِدت بباب إسماعيلا[٥]

وثمَّة حادثة أخرى أطلقت العنان لشوقي في شاعريته وموضوعات شعره، بل إلى التفاف الجماهير حوله كشاعر للوطنية، بعد أن نفاه الإنجليز عن مصر بعد عزل الخديوي عباس الذي وقف بجانب الدولة العثمانية عند إعلان الحرب العالمية الأولى، حيث قال شوقي قصيدته اللامية في تهنئة السلطان حسين كامل،[٦] ومطلعها:

الملك فيكم آل إسماعيلا لا زال ملكُكُمُ يظلُّ النيلا[٧]

١ محمد صبري السوربوني المصري، عالم بالأدب وتاريخه. اشتهر بالسوربوني لأنه أول مصري نال شهادة (دكتوراه دولة) من السوربون بباريس (١٩٢٤) وكان أستاذا في الجامعة المصرية ثم مديرا للمطبوعات. وصنف كتبا مطبوعة، منها (ذكرى الماضي) مجموعة لبعض مقالاته في صباه، و (أدب وتاريخ) و (شعراء العصر) و (محمود سامي البارودي) و (أبو عبادة البحتري) و (إسماعيل صبري) و (ذو الرمة) و (تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطاليا) و (الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر) و (تاريخ مصر الحديث) و (الشوقيات المجهولة). انظر: الأعلام ٦/ ٤٢٤.

٢ الشوقيات المجهولة.

٣ الأعلام ٢/ ٢١٦.

٤ الشوقيات ٣/ ٣٨-٤٠.

٥ الشوقيات ٢/ ١١٢.

٦ أحمد شوقي، لزكي مبارك، ٢٨٩ - ٢٩٢.

٧ الشوقيات ٢/ ١١٢.

٢: أحمد شوقي والتاريخ

في قصيدته: "الأسطول العثماني"[١] يوجّه شوقي حديثه إلى "معشر الإسلام" مبيّنًا أن الأخذ بأسباب العلم والقوَّة هو السبيل إلى استعادة الأمجاد الماضية، والسيادة الضائعة ويشير إلى أن تعلُّم التاريخ وتعليمه للناشئة هو السبيل لبثِّ روح الأمل فيهم، واستدعاء أمجاد الماضي للسعي نحو سبيلها، يقول:[٢]

حبُّ السِّيادَةِ فِي شَمَائِلِ دِينِكُمْ ... والجِـدُّ روحٌ منـه والإقْدَامُ[٣]
والعلمُ من آياتِهِ الكُبْـرَى إذا ... رجعت إلـى آياتِـهِ الأقوامُ[٤]
لو تُقْرِئون صغَارَكُمْ تاريخَـهُ ... عَرف البنونُ المجدَ كيف يُرام
كم واثقٍ بالنفس نهَّاض بهـا ... سَـادَ البريَّةَ فيه وهو عِصَـامُ[٥]

وفي الجزء الأول من ديوانه "الشوقيات" الكثير من القصائد التاريخية؛ وحتى قصائده السياسية هي في الأصل قصائد يصف بها أحداثًا تاريخية وقعت في عصره، وهو يصفها كشاهد عيان، ويبدي رأيه فيها؛ بل يوجه الرأي العام.

كذلك الجزء الثالث من ديوانه الذي خصِّص للمراثي، تجده يرثي الكثير من الشخصيات المشهورة في شتى أنحاء العالم؛ مما يدلُّ على ثقافة واسعة واطلاع تاريخي متعدِّد الأضراب واهتمامات ذات شجون.

ونرى ذلك واضحًا في ثنايا قصائده التاريخية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهو يذكر الواقعة أو القضية، ويأتي لها بما يشبهها في صفحات التاريخ، أو يعقد مقارنة بين الماضي والحاضر، أو بين حضارة وحضارة، أو بين أمة وأخرى.

---

١ الشوقيات ٢١٤-٢١٨.

٢ المصدر نفسه ٢١٨.

٣ الجد: الاجتهاد في الأمر. وروح منه: أي من دينكم. انظر: حواشي الشوقيات لمحمد حسين هيكل ٢١٨.

٤ والعلم من آياته: أي من آيات الدين. انظر: المرجع السابق.

٥ النهَّاض: مبالغة من النهوض، وهو القيام، وهو عصام: أي كعصام، وهو رجل شرف بنفسه وعمله، لا بنسبه وآبائه، حتى قيل فيه: "نفس عصام سودت عصامًا"، فضرب به المثل في ذلك. انظر مختار الصحاح للرازي ٤٦٧.

وفي قصيدته الطويلة: "صدى الحرب"[1] التي قيلت في الحرب العثمانية اليونانية يقارن بين الأمتين والحضارتين الإسلامية واليونانية، ويورد لنا نماذج من شخصيات التاريخ اليوناني مفضلًا عليها بني عثمان، فيقول مثلًا:

حُسامُك من سقراطَ في الخطب أَخْطَبُ ... وعودُك من عُود المنابر أَصْلَبُ
وعزمُك من هوميرَ أمضى بديهةً ... وأجلى بيانًا في القلوب، وأعذبُ[2]
وإن يذكروا إسكندرًا وفتوحَه ... فعهدُك بالفتح المحجَّل أقربُ[3]

ولعل قصيدته التي افتتح بها ديوانه " كبار الحوادث في وادي النيل"، والتي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في جنيف في سبتمبر ١٨٩٤م، وكان مندوبًا عن الحكومة المصرية فيها"،[4] توضح بجلاء إلمامه الواعي بالتاريخ المصري خصوصًا، والتاريخ العربي عمومًا.

وثقافة شوقي بالتاريخ ليست مجرَّد إطلاع وإلمام، إنما هي وعي كامل بأحداثه وفلسفته، نرى ذلك كثيرًا في حكمه التي يبثُّها في قصائده، وفي نقده أيضًا لبعض مراحل التاريخ العثماني في مصر؛ فهو رغم إعجابه الشديد بالعثمانيين يقول منتقدًا سيطرة المماليك الجراكسة على زمام الأمور في مصر منذ بدايات الوجود العثماني حتى قبيل أسرة محمد علي:

واذكُرِ التُّرك إنهم لم يُطاعُوا ... فيرى الناسُ أحسنُوا أم أساءُوا
حكَمَت دولةُ الجراكِسِ عنهم ... وَهْيَ في الدَّهرِ دولةٌ عَسرَاءُ[5]

وهو في انتقاده للترك لا ينتقد مجرَّد تاريخهم الماضي وولاتهم السابقين؛ بل يطال بنقده كبار رجال السياسة والعسكريين المعاصرين؛ مما يدلُّ على جرأة في الحقِّ تبرز جانبًا من شخصية شوقي الوادعة، كما تنبئ أيضًا عن رؤية ثاقبة للأحداث ومسيرتها ولفلسفة التاريخ فيها.

١ الشوقيات ١/ ٣٨ – ٥٤.
٢ سقراط: خطيب اليونان وحكيمها المشهور. هومير: أكبر شعراء اليونان الأقدمين.
٣ المحجل: المضيء المُشرق. انظر: المصباح المنير للفيومي ١/ ١٦٧.
٤ حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ١٥.
٥ عسراء: شديدة ظالمة. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ١٥.

وها هو في قصيدته: "الأندلس الجديدة"[١] يذكر ضياع أدرنة، وخروج مقدونيا عن الحكم العثماني، وإعلان البعض أنها كانت عبئًا كبيرًا على دولة الخلافة لكثرة مشاكلها:

مقدونيا - والمسلمون عشيرة – كيف الخئولة فيكِ والأعمام؟
زعموكِ همًّا للخلافة ناصبًا وهل الممالكُ راحةٌ ومنام[٢]
ويقول قومٌ: كنتِ أشأَم مَوْرِدٍ وأراكِ سائغة عليكِ زحام
ويراكِ داءَ المُلك ناسُ جَهالة بالمُلك منهم علَّةٌ وسَقَام[٣]

ويواصل في قصيدته توجيه النقد اللاذع لهؤلاء الساسة؛ شارحًا بعض عوامل ضعف الدولة والأمة.

نعى شوقي في مقدمة الجزء الأول من ديوانه –المنشور عام ١٨٩٨م– على الشعراء تسخيرهم أشعارهم للمديح الذي يَغُلُّ المواهب؛ غير أنه اضطر بحكم وظيفته في القصر أن يسلك نفس المسلك، فإذا هو شاعر الخديوي عباس. وكان قبل منفاه إلى أسبانيا يستشعر قوة أمجاد وطنه الفرعونية، ويلم من حين إلى حين بمشاعر العروبة، وهناك عاين مجد العرب والمسلمين الضائع في قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وفي قصيدته السينية الأندلسية يصوِّر ما أصاب به المستعمر وطنه، ويبكي مجد العرب الضائع، ومجدهم الحضاري التالد.[٤]

ولما عاد إلى وطنه، واختلطت نفسه بنفس الشعب، فإذا هو بركان ثائر لا يزال يرمي بحممه في وجه الإنجليز، وفي تضاعيف ذلك ينصح قومه بالاتحاد في وجه الغاصبين، وينعى على الأحزاب تطاحنها على كراسي الحكم، وامتدَّ يلهب بشعره إلى جميع ساحات النضال بين العرب والمستعمرين، فلم تنشب ثورة في سوريا أو في ليبيا أو في غيرهما من البلاد العربية إلا هبَّ مع الثائرين يرمي المستعمرين

١ الشوقيات ١/ ٢١٨ – ٢٢٧.
٢ الهم الناصب: المتعب. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٢١٨ – ٢٢٧.
٣ الشوقيات ١/ ٢١٩ – ٢٢٠.
٤ فصول في الشعر ونقده لشوقي ضيف ٣٣٩.

بشواظ أبياته محرِّكًا للعزائم والهمم.[1]

وإذا كان الناقد "شوقي ضيف" يرى أن أحمد شوقي كان شاعر العربية في منازعها القومية، فإن شعر شوقي في الترك والعثمانيين – حتى بعد انفصاله عن القصر وعن الخديوي – يوضح بجلاء أن قومية شوقي كانت مغايرة تمامًا للقومية والعروبية التي نشأت في حينها، ثم تطوَّرت.

كانت قومية شوقي إحدى دوائر انتمائه إلى العروبة، والتي تضمُّها دائرة انتماء أوسع هي أن العرب والترك جميعًا هم "قوم عثمان"، أو "بني عثمان"، وهم جميعًا داخلون في الدائرة الأوسع التي تجمع المسلمين جميعًا؛ سواء الداخلين في حكم " أمير المؤمنين" أو أولئك الذين ينتمون إليه حبًّا وولاءً في بقية أنحاء العالم الإسلامي؛ سواء في الهند أو غيرها، ولعلَّ قصيدته "تحية للترك"[2] ووصفه لهم بأنهم "أشرف الأمم"[3] نفي تام لأي عصبية قبلية أو وطنية، وهو في القصيدة نفسها الوشائج التي تربط الشعوب العثمانية، ويرسم الدوائر التي تنتمي إليها تلك الشعوب.

يا فتيةَ الترك حيا اللهُ طلعَتَكم ... وصانكم وهداكم صادقَ الخِدَم[4]
أنتم غدُ الملكِ والإسلامِ لا برِحا ... منكم بخير غدٍ في المجدِ مبتسم[5]
تُحِلُّكم مصرُ منها في ضمائِرها ... وتعلن الحبَّ جمًّا غيرَ متَّهم
فنحن إن بعدت دارٌ وإن قربتْ ... جاران في الضاد أو في البيت والحرَم
ناهيك بالسببِ الشرقيّ من نسبٍ ... وحبَّذا سببُ الإسلام من رحِم
شملُ اللغات لدى الأقوامِ ملتئمٌ ... والضاد فينا بشمل غير ملتئمٌ
فقرَّبوا بيننا فيها وبينكُمُ ... فإنه أوثقُ الأسباب والذِّمم[6]

١ فصول في الشعر ونقده لشوقي ضيف٣٤٠ - ٣٤١.
٢ الشوقيات ١/ ٢١٣.
٣ مطلع القصيدة.
٤ صادق الخدم: أي الخدم الصادقة، وهي جمع خدمة. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٢١٣.
٥ أنتم غد الملك والإسلام؛ أي أنتم الذين تهيئون لهما غدهما، والمراد مقبل حالهما. انظر: حواشي الشوقيات ١/٢١٤.
٦ الشوقيات ١/ ٢١٣ – ٢١٤.

وفي قصيدته "انتصار الأتراك في الحرب والسياسة"[١] يشير إلى الكثير من البقاع الإسلامية في الشرق والحجاز والشام والهند ومصر وغيرهم، ويؤكد أن هذه الممالك كلَّها:

ممالك ضمَّها الإسلام في رَحِمٍ وشيجةٍ وحواها الشرقُ في نسب[٢]

ثانيًا: الأحداث التي تناولها شوقي

١: الحرب العثمانية اليونانية عام ١٨٩٧م

تلك الحرب التي أعلنتها الدولة العثمانية في ١٨ إبريل ١٨٩٧م على اليونان، وانتهت بنصر عسكري كبير للعثمانيين في ١٨ ديسمبر ١٨٩٧م[١]

وقد نظم أحمد شوقي قصيدتين وردتا في الجزء الأول من الشوقيات؛ إحداهما بعنوان "صدى الحرب"، ومطلعها:

بسيفك يعلو الحقُّ والحقُّ أغلب ويُنصَرُ دينُ اللهِ أَيَّانَ تَضْرِبُ[٤]

وهي قصيدة طويلة بلغت أبياتها (٢٥٩) بيتًا، مقسَّمة إلى مقاطع، كلُّ مقطع فيه مجموعة أبيات لها عنوان مستقلٌّ، لكن في سياق القصيدة ونفس الوزن والقافية، وعناوين هذه المقاطع تحمل تفاصيل ذلك الحدث ومقدماته وبعض شخصياته ووقائعه، هذه العناوين هي: أبوَّة أمير المؤمنين. زينب المتطوِّعة في موقعة. الجلوس الأسعد. مضيق ملونا. حلم عظيم وبطش أعظم. الحاج عبد الأزل باشا. معجزات الجنود على الحدود. هزيمة طرناو. زينب بني عثمان. التلاقي سهل فرسالا. الحالة في بحر الروم. غصب دوموقو. منعة السواحل العثمانية. أحلام اليونان. عفو القادر.

---

١ الشوقيات ١/ ٥٤ – ٥٩.

٢ الشوقيات ١/ ٥٩. الرحم الوشيجة: المتصلة القرابة. انظر: مختار الصحاح ٥١٢.

١ الدولة العثمانية من معاهد قينارجة الصغرى حتى الانهيار لكمال بكديللي، في الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ١٢١.

٤ الشوقيات ١/ ٣٨.

التماس القبول.[١]

أما القصيدة الثانية حول الحرب العثمانية اليونانية، فكانت باسم "تحية للترك"، ومطلعها:

بحمدِ اللهِ ربِّ العالمينا وحمدِك يا أميرَ المؤمنينا

لقينا في عدوِّكَ ما لقينا لقينا الفتحَ والنصرَ المبينا[٢]

وقد عقَّب عليها محمد حسين هيكل صاحب مقدِّمة الديوان بقوله: "قيلت في الحرب بين اليونان والأتراك سنة ١٣١٤هـ، وقلَّما نالت قصيدة في العالم العربي بأجمعه ما نالته هذه القصيدة أيام ظهورها من حفاوة وانتشار".[٣]

وكانت المشاحنات قد اشتدَّت في شأن الوضع القانوني لجزيرة كريت؛ حيث كانت تابعة للدولة العثمانية، بينما تسعى اليونان لاستقلالها إداريًا، وجعلها ذات حكم ذاتي لضمِّها إلى اليونان، مع تزايد الضغوط الأوربية واستفزازات اليونان والعصابات المسلحة التي أوقعت صدامات دامية بين سكان الجزيرة من المسلمين والمسيحيين؛ لاسيما بعد إرسال اليونان لعشرة آلاف جندي للجزيرة في فبراير ١٨٩٧م، وغيرهم من الجنود على الحدود العثمانية اليونانية.[٤]

ورغم انتهاء الحرب بنصر عسكري عثماني؛ إلا أن الضغوط الأوربية حرمت العثمانيين من نتائج الصلح والتعويض المادي عن الحرب، وتمَّ تعيين والٍ مسيحي على الجزيرة؛ تمهيدًا لانفصالها النهائي عن الدولة العثمانية، ثم دخلت الجزيرة بالفعل تحت الحكم اليوناني، وإعلان ذلك رسميًّا في ٦ أكتوبر ١٨٠٩م.[٥]

١ الشوقيات ١/ ٣٨ - ٥٣.

٢ الشوقيات ١/ ٢٦٩.

٣ الشوقيات ١/ ٢٦٩.

٤ Mufassal osamanli tarihi, Istanbul 1963, vi, s.383.

٥ w.langer, the diplomacy of The imperialism, new york, 1951, s.315-320.

٢: محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني

قام المتمرّدون الأرمن في الخامس من يوليو ١٩٠٥م، بتجهيز قنبلة موقوتة لتنفجر في السلطان عقب خروجه من صلاة الجمعة. وقد انفجرت القنبلة وأودت بحياة ٢٦ شخصًا وأصابت ٥٨ آخرين، بينما نجا السلطان عبد الحميد الذي تأخَّر في الوصول إلى مكان وموعد الانفجار لطول محادثة جرت مع شيخ الإسلام عقب الصلاة.[١]

والقصيدة التي هنَّأ بها شوقي السلطان لنجاته كانت أيضًا تحمل عنوان "نجاة"، ومطلعها:

هنيئًا أميرَ المؤمنين فإنَّما نجاتُك للدِّين الحنيف نجاة[٢]

وفيها أورد أحمد شوقي تفاصيل الموقف، وما حدث فيه كأنَّه شاهد عيان؛ حيث وصف جرأة السلطان وثباته ورباطة جأشه، كما نحا باللوم على عصاة الأرمن المسيحيين الذين يتبرَّأ منهم دين المسيح، كما يتبرأ منهم طلاب الحقِّ وأصحاب الشكوى:

رمتهم بسهم الغدر عند صَلاتهم عصابةُ شرٍّ للصلاة عداة[٣]
تبرَّأ عيسى منهمُ وصِحَابه أَأَتباعُ عيسى ذي الحنانِ جُفاة؟[٤]
يعادون دينًا لا يعادون دولة لقد كذبت دعوى لهم وشكاة[٥]
ولا خير في الدنيا ولا في حقوقها إذا قيل طُلاَّبُ الحقوقِ بُغاة
بأيِّ فؤادٍ تَلتقي الهولَ ثابتًا وما لقلوب العالمين ثَبات

١ Hikmet Tanyo, Tarih boyunca yahudiler ve Turkler, 2 cilt, Istanbul, 1977, cilt 1, s.472.

٢ الشوقيات ١/ ٨٦.

٣ الغدر: الخيانة وعدم الوفاء، والجماعة: قيل العشرة، وقيل: ما بين العشرة والأربعين، العداة: جمع عدو، والمراد نصارى الأرمن الذين دبَّروا حادث القنبلة. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٨٦.

٤ تبرَّأ منه: تخلَّص منه وأنكره، عيسى: ابن مريم النبي عليه السلام، الصحاب: جمع صاحب. أتباع: جمع تابع والهمزة للاستفهام، الحنان: الرحمة، الجفاة: جمع جاف وهو الغليظ الخلق. انظر: حواشي الشوقيات ١/ ٨٧.

٥ الشكاة: الشكوى، وهي التظلم. انظر: مختار الصحاح ٢١٤.

إذازُلزلتْ من حولك الأرض رادها وقـارُك حتـى تسكـنَ الجَنَبات[1]
وإن خرجت نـارٌ فكانت جهنمًا تُغـذّي بأجساد الـورَى وثُقات[2]
وترتـجُّ منهـا لُجَّـةٌ ومدينـةٌ وتَصلَـى نـواحٍ حرَّهـا وجِهات[3]
تمشيت في بُرْدِ الخليل، فخضتَها سلامًا وبـردًا حولـك الغَمَرات[4]

٣: خلع السلطان عبد الحميد الثاني

كمقدمة لخلع السلطان عبد الحميد الثاني وحدوث الانقلاب العثماني، وقعت بعض الأحداث المتتالية في الدولة العثمانية، كان خاتمتها ما يعرف في التاريخ العثماني بحادثة ٣١ مارت (١٣ أبريل ١٩٠٩م)، ويقول أغلب المؤرخين أن هذه الحادثة تمثيلية سياسية قامت بها جمعية الاتحاد والترقي لإسقاط نظام السلطان عبد الحميد.[5]

وبالفعل تمَّت المؤامرة التي كانت خاتمتها إجبار شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي[6] على توقيع فتوى خلع السلطان.[7]

١ زلزلت الأرض: أرجفت، راد الأرض: تفقدها ليرى هل تصلح للنزول بها. الوقار: الحلم والرزانة، والجنبات: النواحي، جمع جنبة. انظر المصباح المنير ١/ ١٢٣، ٢١٤، ٣١٢.

٢ تغذى، من غذاه: أي أطعمه. أجساد: جمع جسد، الورى: الخلق، تقات: من قاته، أعطاه قوتًا، وهو ما يؤكل ليمسك الرمق. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٨٧.

٣ ترتجُّ: تضطرب، لجة الماء: معظمه، تصلى حرها: تجده وتخترق بها جهات الأرض ونواحيها؛ أي أنها نار عامة عظيمة. انظر: مختار الصحاح ١٢٤، ٢١١.

٤ الشوقيات ١/ ٨٧. تمشيت: مشيت، البرد: الثوب، الخليل: هو النبي إبراهيم عليه السلام، وقصة خوضه النار التي أوقدها له النمروذ مشهورة. سلامًا؛ أي: سلامة، وبردًا: أي لا حرًا، الغمرات: الشدائد والمكاره. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٨٧.

٥ السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، لحرب، ٤٦ – ٤٨.

٦ هو المولى محمد ضياء الدين بن عثمان نوري (١٢٦٣-١٣٣٥هـ/ ١٨٤٧ - ١٩١٧م) آخر شيوخ الإسلام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وكان قد تولى منصب المشيخة ومفتي الدولة مع حكومة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا في ٢٣ محرم ١٣٢٧هـ/ ١٤ فبراير ١٩٠٩م، وكانت الدولة تمرُّ بأحداث عنف وشغب وصراع على الحكم، وسرعان ما استقالت الحكومة، وأعفي الشيخ من منصبه في ٥ مايو ١٩٠٩م. انظر: تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، لشقيرات، ٢/ ٣٠٢-٣٠٤.

٧ المرجع السابق ٢/ ٣٢٤.

والقصيدة التي علَّق بها شوقي على تلك الأحداث تحمل اسم: "الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد"، ومطلعها:

سلْ "يَلْدِزًا" ذات القصور ... هل جاءَها نبأ البدور؟[١]
لـو تستطيـعُ إجابـة ... لبكتْـك بالدَّمع الغزير[٢]
أخنـى عليهـا مـا أناخ ... على الخَوَرنَق والسَّدير[٣]

لم تتعرَّض القصيدة لتفاصيل الأحداث؛ بل ركَّزت على تصوير قصور الملوك وما فيها من رفاهية ونعيم، ثم دوائر الزمان التي تدور عليه وعلى سكانه الذين:

دارت عليهنَّ الدوائرُ ... في المخادع والخدور[٤]
أمسين في رِقِّ العبيـد ... وبتْنَ في أسرِ العشير[٥]

لم يكن شوقي من الشامتين في عبد الحميد كما فعل الكثيرون من العلماء وقادة الرأي، بل سماه في قصيدته بـ "شيخ الملوك" وأوكل حسابه إلى ربه، وقال:

نستغفر المولى له ... والله يعفو عن كثير
ونصونه ونجلُّه ... بين الشماتة والنكير
عبد الحميد حساب ... مثلك في يد الملك الغفور[٦]

٤: إلغاء الخلافة

مع انتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيسًا لتركيا، وتحوُّل تركيا إلى النظام

١ يلدز: في لغة الترك: اسم نجم، وقد سمي به قصر عظيم في الآستانة، كان يسكنه السلطان عبد الحميد أيام ملكه، والمخاطب بقوله: " سل... إلخ". هو هذا السلطان. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ١١٢.

٢ الشوقيات ١/ ١١٢.

٣ أخنى عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه، انظر: مختار الصحاح ٤٥. والخورنق: قصر كان في الحيرة بالعراق للملك النعمان الأكبر أحد ملوك بني المنذر، والسدير: قصر كان بالحيرة أيضًا للمناذرة. انظر: الشوقيات ١/ ١١٢.

٤ الدوائر: جمع دائرة، وهي النائبة من صروف الدهر. والمخادع: جمع مخدع بضم الميم وكسرها، بيت يكون في البيت الكبير يحرز فيه الشيء. انظر: المصباح المنير، ١/ ٣١٢، و٢/ ١٤٣.

٥ الشوقيات ١/ ١١٣. العبيل: الضخم الغليظ. انظر: مختار الصحاح ٣٤٥.

٦ الشوقيات ١/ ١١٤.

الجمهوري بعد معاهدة الصلح في لوزان ٢٥ يولية ١٩٢٣م، كان من أخطر القرارات التي اتخذها أتاتورك إلغاء منصب الخلافة الإسلامية، ٣ مايو ١٩٢٤م.[١]

وكان لهذه الخطوة الأثر العميق في العالم الإسلامي على الأصعدة السياسية والدينية والمستقبلية كافة، وكانت صدمة أيضًا لأمير الشعراء الذي مدح -بالأمس القريب- مصطفى كمال باشا (أتاتورك)، وأطلق عليه لقب "خالد الترك" في مطلع قصيدته "انتصار الأتراك في الحرب والسياسة":

اللهُ أكبر، كَمْ في الفتح من عَجَب يا خالدَ التُّركِ جدِّدْ خالدَ العَرَب[٢]

وها هو ينعى الخلافة في قصيدته "خلافة الإسلام"، ومطلعها:[٣]

عادت أغاني العرسِ رَجْعَ نُواحِ ونُعيتِ بين معالم الأفراح[٤]

٥: سقوط أدرنة

لم يكن سقوط أدرنة -رغم كارثيته- هو بداية ولا خاتمة الأحداث في تفكُّك وانسلاخ أهم أجزاء الدولة العثمانية، وقد تسارعت معدلات ذلك الانسلاخ مع السياسات التي اتبعتها حكومات الاتحاد والترقي، التي اندلعت في عهدها الحرب العثمانية الإيطالية ثم حروب البلقان، وكانت النتيجة في الحربين ضياع آخر الأراضي العثمانية في أفريقيا والبلقان، وبينهما الكثير من جزر البحر المتوسط.[٥]

وقد استولى البلغار على أدرنة بعد هزيمة فادحة للعثمانيين في حرب البلقان (سبتمبر- أكتوبر ١٩١٢م)، ثم كان التنازل الرسمي عنها في معاهدة لندن (٣٠ مايو

١ انظر: T. M .K. Misiroglu, osmanogullannin Drami. Ell Gurbet Yili (1924–1974), Istanbul 1974;

٢ خالد الترك: يراد به الغازي مصطفى باشا كمال، وخالد العرب: هو خالد بن الوليد. الشوقيات ١/ ٥٤.

٣ الشوقيات ١/ ٩٩.

٤ الشوقيات ١/ ٩٩. الرجع: ما يرد في المكان الحالي على الإنسان إذا رفع صوته. والمعالم: جمع معلم وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٩٩.

٥ انظر: Abdulkadir Ozcan "Fatih'in Teskilat Kanunnamesi ve nizam-1 alem icin kardes katli meselesi', .TD. Istanbul, 1982, sy 33, s. 45

١٩١٣م).[١]

ولعلَّ تلك الأسباب هي التي استدعت شجون المشاعر، فتذكر بضياع كلِّ هذه الدول ضياع الأندلس، فأطلق قصيدته "الأندلس الجديدة" التي يقول في مطلعها:

يا أختَ أندلس عليكِ سلامُ هَوَت الخلافةُ عنكِ والإسلام[٢]

ثالثًا: مشاهير العهد العثماني الأخير

يشغل الرثاء جزءًا كاملاً في ديوان شوقي؛ إذ لم يكد يترك زعيمًا ولا كبيرًا ولا شاعرًا مشهورًا ولا أديبًا معروفًا لبَّى نداء ربه إلا أبَّنه تأبينًا صادقًا.[٣]

هذا الصدق في رثائه لبني وطنه ينفي عنه أي غرض واستفادة من وراء الرثاء، أو نوال يعود عليه من لدن تلك الشخصيات التي يذكرها ويخلدها في أذهان الناس وقراء الأدب، كما خلدها التاريخ على صفحاته.

وبعيدًا عن الجزء الأول من ديوانه الذي اختص بـ "السياسة والتاريخ والاجتماع"؛ يواصل في الجزء الثالث الحديث في باب آخر من أبواب التاريخ، وهو ذكرى شخصيات من التاريخ المصري والعثماني والعالمي.

والذي يهمنا هنا هو تلك الشخصيات التي أدركها وعاصرها من مشاهير العهد العثماني، من القادة العسكريين والزعماء الوطنيين والعلماء ورجال الصحافة، وسوف نشير إلى نماذج منهم.

١: عثمان باشا الغازي

فمن القادة العسكريين البارزين في الدولة العثمانية، يرثي عثمان باشا الغازي القائد العام للقوات العثمانية في حربها ضد روسيا، والقصيدة تحمل اسمه: "عثمان

١ انظر: Goztepe, Osmanogullarnin Padisahi Vahdettin Gurbert Cehanneminde, Istanbul, 1988, s.221

٢ جارف، من جرف الشيء: ذهب به كله أو أكثره. انظر: مختار الصحاح ١١٠.

٣ فصول في الشعر ونقده، لشوقي ضيف ٣٤٣.

باشا الغازي"، ومطلعها:

هالـةٌ للهـلال فيهـا اعتصـامُ كيف حامَـتْ حِيالَهـا الأيّامُ؟
دخلتْها عليكَ "عثمانُ" في السلم وقـد كنتَ في الوَغَـى لا تُرام[1]

ويذكر الشاعر واحدة من أهم المعارك في الحروب العثمانية الروسية وهي معركة بلونه (بلفنا) التي خلَّدت اسم قائدها عثمان باشا، فيقول:

سَـلْ (بلفنا) أكنت تُـدْرِكُ فيها ولـو أنَّ المحاصِـرين الأنـام
خيم الروسُ حولَ حِصْنِكَ لكن أين مِنْ هامَةِ السِّماكِ الخِيام؟[2]

ثم يمنحه لقب "بطل الشرق"، ويذكر فضله على الخلافة العثمانية، الذي لا ينكره صديق أو خصم:

بطلَ الشرقِ قد بَكتْك المعالي ورثـاكَ الـوَلِيُّ والأخصـام
خَـذَل الملكَ زندُه يـوم أوْدَى ـتَ، وأهوَى من راحَتَيْه الحُسام
ودَهَى الدينَ والخلافـةَ أمـرٌ فـادحٌ رائـعٌ جليـلٌ جُسـام[3]

٢: أدهم باشا

وثمَّة قائد عسكري عثماني هو "أدهم باشا"، وقد أسند إليه السلطان عبد الحميد الثاني منصب القائد العام للجيش العثماني في الحرب ضد اليونان عام ١٨٩٧م، كما عمل أيضًا وزيرًا ومستشارًا في مجلس التنظيمات.[4]

وخصَّه أحمد شوقي بقصيدة تحمل اسمه "أدهم باشا" مطلعها:

مُصابُ بَنِي الدنيا عظيمٌ "بأَدهمِ" وأعظمُ منه حَيْرَةُ الشعرِ في فَمي

ويذكر إحدى الوقائع الحربية التي أبلى فيها بلاءً حسنًا، والتي كانت في مدينة

١ الشوقيات ٣/ ١٤٢.
٢ الشوقيات ٣/ ١٤٢.
٣ الشوقيات ٣/ ١٤٢.
٤ مذكرات السلطان عبد الحميد، ٢٧٢.

"ميلونا"؛ حيث أنقذ سمعة الدولة العثمانية، يقول:

سلوا عنه "مليونًا" وما في شعابه ... وفي ذِرْوَتَيْهِ مِنْ نُسورٍ وأَعْظُم
لَيَالِيَ باتَ الدِّينُ في غيرِ قَبضةٍ ... وزُلْزِلَ في إيمانه كلُّ مُسْلِم
وقال أناسٌ آخرُ العهدِ بالملا ... وهَمَّت ظنونٌ بالتُراثِ المُقَسَّم
فأطلَعَ للإسلامِ والمُلكِ كوكَبًا ... من النصر في داجٍ من الشكِّ مُظلِم
ورحنا نُباهي الشرق والغربَ عِزَّةً ... وكُنَّا حديثَ الشامتِ المترجِّم
مَفاخرُ للتاريخ تُحْصَى لأدهم ... ومَنْ يُقْرِضِ التاريخَ يَرْبَحْ ويَغْنَم[١]

وكان أدهم باشا قد توفي في القاهرة ودفن بها عام ١٩١٩م، وقد أشار إلى ذلك شوقي بقوله:

ويا مصرُ منْ شَيَّعْتِ أَعْلَى همامةً ... وأَثْبَتُ قلبًا مِنْ رَواسِي المقطَّم[٢]

ولم ينسَ شوقي أن يمنح أدهم باشا لقبًا كما فعل مع غيره:

وهل أقبل الركبان ينعون "خالدًا" ... إلى كلِّ رامٍ بالحجار ومحرم؟[٣]

بل هو يشبهه بالإمام علي ﷺ، الذي كان من أبطال الوغى، ورغم ذلك مات بعيدًا عن ساحات القتال:

ومن يُعْطَ في هذي الدَّنِيَّةِ فُسْحَةً ... يُعَمِّرْ وإن لاقى الحروبَ ويَسْلم
(عليّ) أبو الزَّهراءِ داهِيَةُ الوغَى ... دهاه بباب الدّارِ سيفُ ابن مُلْجَم[٤]

٣: مصطفى كامل

لكن قصيدته في مصطفى كامل باشا كانت من أطول وأروع وأحكم مراثيه، يقول في مطلعها:

١ الشوقيات ٣/ ١٤٠ – ١٤١.
٢ الشوقيات ٣/ ١٤١.
٣ المصدر نفسه.
٤ المصدر نفسه.

الـشرقـان عليـك ينتحبان قاصيهمـا في مأتم والداني
يا خادم الإسلام أجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان[1]

ولقب خادم الإسلام الذي منحه له، وأجر المجاهد الذي يرجوه له، إنما مردُّه أن مصطفى كامل كان من المدافعين عن مقام الخلافة الإسلامية، وقضايا الأمة كلِّها، ولم يكن فقط زعيمًا وطنيًّا مصريًّا محليًّا؛ حيث كان مصطفى كامل من أبرز دعاة "الجامعة الإسلامية" وقد زار مصطفى كامل الأستانة نحو خمس مرات بدعوة من السلطان عبد الحميد، أنعم عليه في كل مرَّة منها برتب ونياشين.[2]

والقصيدة تستشهد أبياتها ببعض مواقف مصطفى كامل في خدمة قضايا الأمة، ولعلَّ السكة الحديدية الحجازية كانت محطَّ آمالهم؛ لاسيما أن الحجاز موطن الحرمين.

لمانُعيتَ إلى الحجازِ مشَى الأسى في الزائريـنَ ورُوِّعَ الحَرَمـان
السّكةُ الكُبـرى حِيـالَ رُباهُمـا منكوسـة الأعـلامِ والقُضْبـان
لم تَأْلُهـا عنـدَ الشّدائـدِ خِدمـةً فـي اللهِ والمختـار والسـلطان[3]

ويشير أيضًا إلى جهوده في مجال الإصلاح، يقول:

هل قام قبلك في المدائن فاتح غـاز بغيـر مهنَّـد وسـنان؟
يدعو إلى العلم الشريف وعنده أن العلـوم دعائـم العمـران[4]

ويبدو أنه كان هناك صداقة تجمع بين شوقي ومصطفى كامل، ففي ثنايا القصيدة يصف شوقي عيادته للفقيد في اللحظات الأخيرة.

ولقد نظرتُك والرَّدَى بك مُحْدِقٌ والـداءُ مِـلْءُ معالـمِ الجُثمـان
ورأيتُ كيف تموتُ آسادُ الشَّرَى وعرفتُ كيف مصارعُ الشُّجعان[5]

١ الشوقيات ٣/ ١٥٧.
٢ السلطان عبد الحميد، ١٨٤ – ١٨٥.
٣ الشوقيات ٣/ ١٥٧.
٤ الشوقيات ٣/ ١٥٨.
٥ الشوقيات ٣/ ١٥٩. آساد: جمع أسد، الشرى: طريق في جبل سلمى كثيرة الأسد. انظر: المصباح المنير ١/ ١٤٥.

ولـم تكـن تلك القصيدة الوحيدة في رثـاء مصطفى كامل؛ بل له عدة قصائد، منها قصيدة قيلت في حفل تمجيد لذكراه عام ١٩٢٦م، يقول في مطلعها:

لـم يَمُتْ مَنْ له أَثَرْ وحيـاةٌ مِنَ السَّـير
أُدْعُـه غائبًـا وإن بعُدتْ غاية السفر[١]

رابعًا: القضايا التي تناولها شوقي

١: الأسطول العثماني

كانـت القوَّة البحرية العثمانية هي القوَّة البحرية الأولى في العالـم حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر؛ قبل أن تتراجع عن موقعها ذاك لصالح البحرية الإنجليزية في النصف الثاني من القرن نفسه، لكنها ظلَّت تحافظ على موقعها كثالث قوَّة بحرية في العالـم –بعد دولتي إنجلترا وفرنسا– حتى سنة ١٨٧٨م، ثـم بدأت في التراجع نتيجة فقدانها للمصادر المالية.[٢]

ثـم هبطت درجتها قبيل الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤م إلى الدرجة التاسعة بين السبعة وعشرين دولة التي تمتلك قوات بحرية، وكان من الممكن أن ترتفع إلى مستوى أفضل بعد حصولها على الدراعات التي دفعت ثمنها، وكانت جاهزة في معامل إنجلترا، ثـم استولت إنجلترا عليها قبيل الحرب العالمية.[٣]

وفي القصيدة التي تحمل اسم "الأسطول العثماني" كان شوقي في الآستانة، وشاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العلية من ألمانيا، فأخذته هزَّة الطرب، وعزَّ عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض قاعدين عن إعانة أسطول الدولة، فجرى لسانه بهذه القصيدة،[٤] ومطلعها:

---

١ الشوقيات ٣/ ٩١.

٢ تاريخ الدولة العثمانية ليلماز أوزتونا ٢/ ٤٢٤.

٣ المرجع نفسه ٢/ ٤٥٧.

.S. S. Aydemir, Makedonya'dan Orta Asye'ya Enver Pasa, I-III, Istanbul, 1970 - 1972

٤ حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٢١٤.

هزَّ اللواءَ بعزّك الإسلامُ وعنتْ لقائم سيفِك الأيام[1]

وهو في ذلك يخاطب الخليفة والسلطان العثماني محمد رشاد الذي وصفه بالعدل، وكان العدل سببًا في أن رعاياه من المسيحيين واليهود يقاتلون تحت لواءه، يقول:

في كلِّ ناحيةٍ وكلِّ قبيلة عدلٌ وأمنٌ مُورِفٌ ووئام[2]
حمل (الصليب) إليكَ من فتيانه جندًا وقاتلَ دونكَ (الحاخام)[3]

ومع الأحوال المتردِّية للدولة العثمانية، وما تمرُّ به من ظروف صعبة، وإقبالها على الحرب، يذكر الماضي المجيد للدولة ومؤسسيها العظماء وسلاطينها الكبار، فيقول مخاطبًا السلطان:

يا ابنَ الذين إذا الحروبُ تتابعت صَلَّوْا على حَدِّ السيوف وصاموا[4]
عشرون خاقانًا نَمَوْكَ وعَشرةٌ غرُّ الفتوح خلائفٌ أعلام[5]

ثم هو يدعو إلى أن تتناسى الدولة جراحها وتسمو على آلامها، وتتجه إلى تعزيز قوَّتها وجيشها لمواجهة المستقبل:

لا تلحقنَّ من الجراح بقيَّةً إن البقيَّة في غدٍ تلتام
تعبتْ بأمَّتك الخطوبُ فأقصرت والدهرُ يقصر والخطوبُ تنام[6]
زدهم أمير المؤمنين من القوى إنَّ القوى عزٌّ لهم وقوام

---

١ المرجع نفسه.

٢ مورف: متسع وممتد. انظر: مختار الصحاح ٤٢٣.

٣ حمل الصليب... إلخ: يريد أن رعاياك من النصارى واليهود مخلصون، يقاتلون من دونك لما أظللتهم به من العدل والأمن. الشوقيات ١/ ٢١٥.

٤ صلوا على حد السيوف وصاموا: أي لزموها كما يلزم المتعبد صلاته وصيامه. انظر: حواشي الشوقيات لهيكل ١/ ٢١٥ – ٢١٦.

٥ الخاقان: هو كلُّ ملك من الأتراك، ونموك: أي رفعوك بالانتساب إليهم، وعشرة غير الفتوح: أي ونماك أيضًا عشرة خواقين، امتازوا بالفتح والتوسع في الملك، فاختصوا بوصف الفاتحين، فلا يقال هذا الوصف لغيرهم من سلاطين آل عثمان. وخلائف: جمع خليفة. حواشي الشوقيات لهيكل ٢١٥- ٢١٦.

٦ أقصرت: أي انتهت وأمسكت عنها. انظر: المصباح المنير ١/ ١٣٤.

والحـقُّ ليـس وإن عـلا بمؤيَّد حتـى يحـوط جانبيــه حسـام[١]

ثم يعود إلى الحديث عن الأمجاد البحرية للأسطول العثماني في أيام تفوُّقه، ويشير إلى بعض من قادته الذين خلَّدهم التاريخ مثل: خير الدين بربروس،[٢] وطرغود:[٣]

يـا بربـروسُ علـى ثراكَ تحيَّـةٌ وعلى سَـمِيِّكَ في البحارِ سلام
وتلاك (طرغـودُ) كما قد كنتُما جَنبًا لجنــبٍ والعُبـابُ ضِرام[٤]

ثم نرى شوقي يوجه دعوته إلى أبناء الأمة الإسلامية ليدعموا بالمال–تبرُّعًا– الأسطول العثماني، وينادي:

يا معشرَ الإسـلامِ في أُسطولِكم عـزٌّ لكـم ووقايـةٌ وسـلام
جـودوا عليه بمالِكـم واقضوا له مـا توجبُ الأَعلاقُ والأرحـام[٥]
لا الهند قد كرُمت ولا مصرٌ سخَت والغرب قصَّر عن ندىً والشـام[٦]

٢: الدستور العثماني وإعلان المشروطية الثانية

كان لجمعية الاتحاد والترقي نفوذٌ كبيرٌ داخل الجيش العثماني، وكانت هي ممثِّلة المعارضة ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وقد تأثَّروا بالأفكار الليبرالية

١ لا تحفلن بقية، أي لا تبالِ بها. فهي ستبرأ وتلتحم يشير بذلك إلى حوادث كانت تشغل الدولة التركية يومئذ. حواشي الشوقيات ١/ ٢١٦.

٢ بربروس خير الدين باشا: اسمه الأصلي: خضر رئيس: توفي سنة ١٥٤٦م، أخو عروج رئيس، فتح الجزائر وأصبح قبودان داريا (مشير البحر) للقوات البحرية العثمانية. تاريخ الدولة العثمانية، ليلماز أوزتونا ٢/ ٤٢٣.

٣ منتشلي طرغود باشا: توفي سنة ١٥٦٦ م، تدرَّج على يد بربروس باشا، سيطر مدة طويلة على البحر الأبيض بصفة أميرال، واستشهد في مالطة. تاريخ الدولة العثمانية، ليلماز أوزتونا ٢/ ٤٢٣.

٤ طرغود: هو أيضًا من أبطال البحر العثماني، جعلت الحكومة التركية اسمه علمًا لبارجة. والعباب: كثرة السيل وارتفاعه. والمراد به هناك كثرة ماء البحر. والضرام: اشتعال النار، والمعنى: أن البارجة التي سميت باسم طرغود، هي مع البارجة المسماة باسمك، فهما في البحر كما كنتما فيه من قبل، حين كانت تشتعل نار القتال فوق عبابه. حواشي الشوقيات ١/ ٢١٧.

٥ الأعلاق: نفائس الأشياء. انظر: مختار الصحاح ٨٧.

٦ الشوقيات ١/ ٢١٨.

التي رأوها منقذة للدولة، وقد توالت الحوادث بعد أحداث مقدونيا؛ حيث اغتيل قواد الجيش الموالين لعبد الحميد خاصة في سلانيك، وكذلك بعض القيادات الأخرى في المخابرات والشرطة؛ ثم اعتُبر كلٌّ من أنور بك[١] ونيازي بك[٢] من الأبطال، وأحاطهم الناس والجيش بمظاهر الاحتفال والتكريم بعد أن تمرَّدوا وفرُّوا إلى الجبل مع جنودهم، وهو ما دفع عبد الحميد دفعًا إلى الانتقال نحو الحياة النيابية وإعلان الدستور (المشروطية الثانية)، في ٢٣ مايو ١٩٠٨م.[٣]

وقد صاحب هذا الإعلان الكثير من المشاعر الشعبية المفعمة بالفرح، والسرور بالحرية وأجواء الأخوة بين عناصر الدولة؛ لكنها سرعان ما تبددَّت بعد الانتخابات؛ حيث انسلخت بعض مناطق الدولة، وانضمت البوسنة والهرسك إلى النمسا والمجر، كما استقلَّت بلغاريا، وانضمت كريت إلى اليونان، وافتتح مجلس المبعوثان بعد تعطُّل دام ٣٢ عامًا، لكنه تحول إلى حلبة للصراع السياسي بين الاتحاديين ومعارضيهم، وكذلك بين العناصر المتباينة من أعضائه.[٤]

وكان شوقي واحدًا من الذين ظنوا أن الإنقاذ في الدستور؛ بل اعتبره هو نظام الشورى الإسلامي، يقول في مطلع قصيدته "الدستور العثماني":

بشرى البريةِ قاصيها ودانيها حاطَ الخلافة بالدستور حاميها[٥]
لما رآها بلا ركن تداركها بعد الخليفة بالشورى ناديها[٦]

وقد اعتبر شوقي أن إعلان الدستور هو تفضُّل من الخليفة على الأمة؛ لأنه

١ أنور باشا (١٨٨١ – ١٩٢٢م): من قادة الاتحاد والترقي، كان وزير الحربية في الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، معجب بالعسكرية الألمانية، ومن دعاة الطورانية -وحدة أتراك العالم- تسبب في هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية. انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد لحرب ٢٧٣.

٢ نيازي (١٨٧٣ – ١٩١٤م): هو نيازي بك الرسنه لي، لقبه الاتحاديون بلقب بطل الحرية لأنه اول من تمرد عسكريا على السلطان عبد الحميد، وكان تحت إمرته ٢٠٠ شخص. انظر: مكرات السلطان عبد الحميد، لحرب ٢٨٧.

٣ انظر: Ahmed Niazi, Hatirat-i: Niazi yahud Tarihce – Inkiabir – I Osmanlyye den bir Sahife, Istan-bul 1326.

٤ انظر: O. Mert, "Anzavui'un Birinci Ayakianmasine Dair Belgeler", Belleten, LV1/217, S. 847 – 963.

٥ حاط الخلافة: حفظها وتعهدها، وحاميها: هو الله تعالى. انظر: حواشي الشوقيات ١/ ٢٧٦.

٦ الشورى: التشاور في الأمر، والمراد الرجوع في الحكم إلى رأي الأمة. حواشي الشوقيات ١/ ٢٧٦.

رضخ لرغبة الجيش، ولم يلجأ إلى المقاومة والعنف حقنًا للدماء:

أسدى إلينا أمير المؤمنين يدًا ... جلَّت كما جلَّ في الأملاكِ مُسديها[١]
بيضاء ما شابَها للأبرياءِ دمٌ ... ولا تكدَّر بالآثامِ صافيها[٢]

ويعود فيؤكِّد أن الأمر كلَّه موسد إلى الخليفة، وإليه المرجع والرأي بعد أن تعجز عنه الرجال، لكنه يؤكد أيضًا أن الشورى لابد منها لأنها أمر جاء به القرآن الكريم:

الرأْيُ رأْيُ أمير المؤمنين إذا ... حارتْ رجالٌ وضلَّتْ في مرائيها[٣]
وإنما هي شورى الله جاء بها ... كتابه الحقُّ يعليها ويغليها[٤]

كما يؤكِّد ثانية على دور الجيش في المطالبة بالدستور، وعلى موافقة السلطان حقنًا للدماء، وأيضًا لعدم طمعه في السلطة المطلقة التي هي مسئولية كبرى منعته الراحة، وأزهدته في لذات الدنيا:

حقَنتَ عند مناداةِ الجيوش بها ... دمَ البريَّةِ إرضاءً لباريها[٥]
ولو منعت أُريقت للعباد دِمًا ... وطاحَ من مُهَج الأجناد غاليها[٦]
ومَنْ يَسُسْ دولةً قد سُسْتها زمنًا ... تهُنْ عليه من الدنيا عواديها[٧]
أتى ثلاثون حوْلاً لم تذُقْ سِنة ... ولا استخفَّك للَّذاتِ داعيها

١ أسدى: أحسن، وأمير المؤمنين: هو السلطان عبد الحميد، واليد: النعمة، والمراد الدستور، وجلت: عظمت، والأملاك: الملوك. حواشي الشوقيات ١/ ٢٧٦.

٢ بيضاء... إلخ: وذلك أنه لم تكد أمة تستخلص الحكم من الملك المستبد به، وتعيده إلى رأيها، إلا بعد حرب تقع بينه وبينها، ولكن السلطان عبد الحميد لم يكد يعلم أن الجيوش زاحفة لتستخلص الحكم الشورى حتى رضيه وأقره، فلم تقع يومئذ حرب، ولا أريقت دماء، وإن كانت قد حدثت بعد ذلك فتنة أريد بها إرجاع الاستبداد، وانتهت بخلع السلطان. حواشي الشوقيات ١/ ٢٧٦.

٣ المرائي: الآراء، جمع مرأى.

٤ الشوقيات ١/ ٢٧٧.

٥ حقنت دم البرية: منعته أن يسفك. والبرية: الخلق، والباري: الخالق. انظر: مختار الصحاح ٩٥، ١١٦.

٦ أريقت: من أراق الماء: صبه، والدما: جمع دم، وطاح: هلك، والمهج: الأرواح، والأجناد: العسكر، جمع جند. انظر: المصباح المنير ١/ ٢١١، ٣١٤.

٧ عواديها: جمع عادية، من عدا عليه: ظلمه، أي العوادي التي تصيبه منها. انظر: مختار الصحاح ٣٢١.

مُسَـهَّد الجفنِ، مكدودَ الفؤادِ بما يُضني القلوبَ شجيِّ النفس عانيها[1]

ويلمِّح شوقي إلى حقيقة مهمَّة في شخصية السلطان عبد الحميد، وفي الأوضاع العامة للدولة:

تكادُ من صُحبةِ الدنيا وخِبْرَتها تسيء ظنَّك بالدنيا وما فيها[2]

ثم هو يذكر بعض تفاصيل الأحداث في "مقدونيا" التي كانت مقدمة لإعلان الدستور، والذي جاء لتهدأ فيها الأحوال:

هبَّ النسيمُ على "مقدونيا" بَردًا من بعد ما عَصَفَتْ جمرًا سواقيها[3]
تغلي بساكِنها ضِغنًا ونائرة على الصدور إذا ثارت دواعيها[4]
عاثت عصائب فيها كالذئاب عَدَتْ على الأقاطيعِ لمَّا نام راعيها[5]

ثم هو في الختام يذكر دور أنور ونيازي في تحريك الأحداث والجيش نحو المطالبة بالدستور، ورغبة المصريين أيضًا في نوال ما نالوه من قلم نيابي:

نِلْتَ الذي لم ينله بالقنا أحدٌ فاهتفْ (لأنورها) واحمدْ (نيازيها)[6]
ما بين آمالك اللاتي ظفرن بها وبين (مصر) معانٍ أنتَ تدريها[7]

١ مسهَّد الجفن: من سهَّده، بالتشديد، جعله يسهد؛ أي: لا ينام، ومكدود الفؤاد: متعبه، ويضني القلوب: يثقلها، وشجى النفس: مشغولها، والعاني: الأسير. حواشي الشوقيات ١/ ٢٧٧.

٢ الشوقيات ١/ ٢٧٨.

٣ الشوقيات ١/ ٣٨ – ٥٤.

٤ تغلي: أي مقدونية، والضغن: الحقد، والنائرة: يقال: نارت في الناس نائرة، أي هاجت هائجة، ودواعي الصدور: همومها. حواشي الشوقيات ١/ ٥٤.

٥ الشوقيات ١/ ٢٧٨. عانت: أفسدت، والعصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، قيل: العشرة، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. عدت: وثبت. والأقاطيع: جمع قطيع، وهو الطائفة من الغنم. انظر: المصباح المنير ٢/ ٢٣٥، ١/ ١٤٢.

٦ القنا: الرماح، جمع قناة، انظر: مختار الصحاح ٢٧٤.

٧ الشوقيات ١/ ٢٨٠.

النتائج

تقوم رؤية شوقي العثمانية على عدة ركائز منها:

أن الخلافة الإسلامية هي عصمة المسلمين في شتى دولهم، مهما اختلفت حكوماتهم وتنوعت أمانيهم الوطنية، فالخلافة هي الدائرة الأوسع التي تضمُّ كل انتماءاتهم الحزبية والمذهبية والوطنية والقومية.

السلطان العثماني هو الخليفة أمير المؤمنين، وهو الشخصية المحورية التي يجب أن يجتمع حولها المسلمون في كلِّ أنحاء العالم، مهما تعدَّد زعماؤهم وأمراؤهم، فهو القائم بدين الله والحامل للواء النبي صلى الله عليه وسلم.

أن بقاء الملك والممالك والأمم إنما يقوم على دعامتين أساسيتين هما: قوَّة السلاح التي تدافع عن الحقِّ، وقوَّة الأخلاق التي تسمو بالناس فوق مرتبة الحيوان المفترس.

أن العلم –لاسيما التاريخ– هو السبيل إلى إصلاح الدولة واسترجاع مجدها.

أن الجهل والرأي غير السديد الذي يأتي من دون إعمال للفكر هو أساس البلوى التي عمَّت في رجال الحكم والسياسة.

أن الذي يجمع عناصر الدولة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم، هو العدل والأمن والإدارة السديدة.

وأن الذي يصون الدولة عن التفتت والانقسام، وضياع مناطقها واحدة وراء الأخرى هو الإصلاح.

انخدع أحمد شوقي في الإعجاب بالكثير من الشخصيات الحاكمة لاسيما من رجال الاتحاد والترقي، مثله في ذلك مثل معظم شعوب المشرق العربي، لكن سرعان ما كشفت سياساتهم الطورانية والعنصرية المتعصبة عن وجهها البعيد تمامًا عن المشروطية والديمقراطية، فانقلب مدحه لهم ذمًّا، واشتدَّ حزنه وحزن قصائده

وبكاؤه على ضياع البلاد ثم ضياع الخلافة، ولعله يشير إلى إحدى القضايا الحساسة والمعلَّقة حتى الآن، وهي أسباب النفور العربي من الدولة العثمانية في عهدها الأخير.

هناك الكثير جدًّا من أحداث التاريخ العثماني التي ذكرها شوقي وتناولها بالنقد والتحليل وأبدى رأيه فيها وأظهر رؤيته لها، معبِّرًا عن رأي الكثيرين من أبناء مصر والمشرق العربي الإسلامي العثماني، وتوصية هذا البحث أن يتناول الباحثون هذه الأحداث بالدراسة والتحليل؛ ليرسموا صورة الدولة العثمانية في مخيلة المصريين والعرب ويوضحوا رؤيتهم لها وفلسفتهم للتاريخ العثماني، فلعل هذه الصورة ماتزال بقاياها ماثلة في الأذهان، وتقف حجر عثرة أمام تقارب الشعوب العربية والتركية.

المصادر والمراجع

أولًا: المراجع العربية

- الشوقيات، لأحمد شوقي، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٣م.
- تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، لأحمد صدقي شقيرات، د.ن، ٢٠٠٢م.
- اثني عشر عامًا صحبة أمير الشعراء، لأحمد عبد الوهاب، مطبعة مصر، ١٩٣٢م.
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٤٠١ه/ ١٩٨٠م.
- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر لرازي، ت: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ٣، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- أحمد شوقي، لزكي مبارك، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.
- فصول في الشعر ونقده، لشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م.
- الدولة العثمانية من معاهد قينارجة الصغرى حتى الانهيار، كمال بكديللي، ضمن "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة"، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)، إستانبول، ط٢، ٢٠١٠م.
- الحريم في القصر العثماني، لماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- مجلة الهلال: عدد خاص عن أحمد شوقي، نوفمبر ١٩٦٨م.
- مذكرات السلطان عبد الحميد، لمحمد حرب (تقديم وترجمة)، دار القلم، دمشق، ط٥، ٢٠١٢م.
- السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، لمحمد حرب، سلسلة أعلام المسلمين (٣٠)، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٦م.
- روايات شوقي المجهولة: دراسة وتحقيق، لمحمود علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م.
- الموسوعة العربية العالمية، النسخة الالكترونية.
- تاريخ الدولة العثمانية، ليلماز أوزتونا، ترجمة عدنان محمود سلمان، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا إستانبول، ط١، ١٩٩٠م.

ثانيًا: المراجع العثمانية والتركية

- Abdulkadir Ozcan "Fatih'in Teskilat Kanunnamesi ve nizam-1 alem icin kardes katli meselesi', TD. Istanbul, 1982, sy 33, s. 45.
- Ahmed Niyazi, Hatirat-i: Niyazi yahud Tarihce – Inkiabir – I Osmaniyye den bir Sahife, Istanbul 1326
- Goztepe, Osmanogullarnin Padisahi Vahidettin Gurbert Cehanneminde, Istanbul,1988.
- Hikmet tanyo , Tarih boyunca yahudiler ve Turkler , 2 cilt , Istanbul , 1977.
- K. Misirtioglu, Osmanogullarnin Drami. Ell Gurbet Yili (1924–1974), Istanbul 1974; T. M.
- M, Bardakci, Son Osmanlilar. Osmanli Hanedani'nin Surgun ve miras oykusu, Istanbul 1991.
- Mufassal Oamanli Tarihi , Istanbul 1963 , vi ,3383 .
- O. Mert, "Anzavur'un Birinci Ayakianmasine Dair Belgeler", Belleten, LV1/217, S. 847 – 963.
- S. S. Aydemir, Makedonya'dan Orta Asye'ya Enver Pasa, I-III, Istanbul, 1970 - 1972.
- w.langer, the diplomacy of imperialism , new york, 1951.